مفردات الحكم الراشد
ومنطق الموازنة بين الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية في الممارسة السياسية عند ماكيافيللي

د. امحمد طالبي

أستاذ محاضر

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

ملخص

ليس المقصود بهذه الدراسة اجترار الماضي الذي يبدو أن الزمن قد غطى عليه من خلال البحوث الحديثة التي أضحت تعتمد الأسلوب العلمي الرصين في تناول القضايا الإنسانية والاجتماعية، ومنها الظاهرة السياسية التي باتت أقرب إلى العلوم الإمبيرقية منها إلى الفكر التنظيري الفلسفي، وإنما الغاية من اختيار هذا الموضوع للدراسة، هو أنه ثمَّة أفكار غيَّرت مجرى الفكر السياسي والممارسة السياسية ، لمدة طويلة من الزمن لازالت آثارها إلى اليوم، لما تنطوي عليه من بُعد النظر في قضايا الممارسة السياسية وطبيعة البشر، من جهة، وعمق الطرح للتأسيس لعلم السياسة الذي يملك مقومات الإستمرارية وتحقيق الممارسة السياسية الرشيدة من جهة أخرى. ويُعَد فكر ماكيافيللي السياسي واحدة منها، حيث جاء بمفهوم جديد في قاموس الفكر السياسي ومفرداته، وحصر الحكم الراشد في حسن التمييز بين الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية. وإذا كانت السياسة والأخلاق من المنظور النظري المجرد، مفهوميْن مختلفين لكل منهما مجاله الخاص، فهذا لا يمنع من الناحية الممارساتية للحكم أن يغيِّر كلٌّ منهما مفهومَه العملي عند ماكيافيللي.

Le résumé :

Cette étude ne vise pas à rabâcher les vielles idées qui semblent dépassées par les nouvelles recherches se basant sur les méthodes scientifiques bien fondées et ayant pour objet des sujets humaines et sociaux, y compris, le phénomène politique qui est beaucoup plus proche des sciences empiriques que de la méthode philosophique, mais le choix de ce sujet comme objet d'étude se base sur le fait qu'il y a des idées qui ont changé le cours de la pensée et de l'histoire politique par une meilleure clairvoyance de la pensée politique et de la nature des sciences humaines,

d'une part, et un profond fondement des sciences politiques ayant les caractéristiques de continuité et la réalisation d'une bonne gouvernance.
La pensée politique de Machiavelli en fait partie, car il a enrichi le dictionnaire de la pensée politique par de nouveaux termes.

مقدمة

إن إشكالية العلاقة بين السياسة والأخلاق كانت ولا تزال إحدى أهم المحاور في جدال الفكر الإنساني، وهذه العلاقة الإشكالية التي تعيش حالة دائمة من التناسب الطردي مع الحراك الإجتماعي والسياسي، الأمر الذي دفع الكثير من المفكرين إلى الإهتمام بدراسة طبيعة العلاقة بين هذين الركنيْن، ومن هؤلاء برز المفكر الإيطالي نيكولاي ماكيافيللي الذي يعتبره البعض المؤسس الأول للمنهج الإشتراكي الذي طبَّقه على الظاهرة السياسية. ومنه اعتبر الحكم الراشد مرهون بتحديد مفردات الحكم الموضوعية والمالكة لمقومات الإستمرارية والمحققة للغاية التي نشأت من أجلها الدولة. وعطفاً على ما سبق يمكن طرح التساؤلات التالية. ما هي مقومات الحكم الراشد في نظر ماكيافيللي؟ وهل الممارسة السياسية عند ماكيافيللي تقتضي تقديم الفضائل السياسية على الفضائل الأخلاقية؟

وقبل الإجابة على هذه التساؤلات كان لابد لنا من إيضاح أهم مفاهيم الحكم التي شكلت نواة الماكيافيللية.

أولا: السياسة.

نعني بالسياسة تنظيم أمور الدولة وتدبير شؤونها، وقد تكون شرعية أو تكون مدنية، حسب مصدر مشروعيتها ومصدر تشريعها (قوانينها). فإذا كانت شرعية كانت أحكامها مستمدة من الدين، وإذا كانت مدنية كانت قسماً من الحكمة العملية، وهي الحكمة السياسية. وموضوع علم السياسة عند قدماء السياسة هو البحث عن أنواع الدول والحكومات، وعلاقاتها ببعضها البعض، والكلام على المراتب المدنية وأحكامها، والاجتماعات الإنسانية الفاضلة والرديئة، ووجوه استبقاء كلٍّ منهما، وعلّة زوالها، وكيفية رعاية مصالح الخَلق وعمارة المدن وغيرها.[1]

وكان الإغريق أول من استخدم كلمة السياسة Politics، وكانت تُطلق في الأصل على اجتماع المواطنين الذين يكوِّنون المدينة. وكلمة السياسة مشتقة من كلمة Polis اليونانية التي كانت تعني المدينة. وقد تطور استخدام الإغريق لهذه الكلمة لتصير Politica. وهذه الكلمة تتضمّن معانٍ عدّة هي: الدستور، الدولة، النظام السياسي، حقوق المواطنة.(2)

وقد يُطلق لفظ السياسة على سياسة الرجل نفسه، أو على سياسة دَخلَه وخَرجه، أو على سياسة أهله وولده وخدمه، أو على سياسة الوالي رعيته.

وإذا أُطلق لفظ السياسي على من يتولّى الحكم في الدولة، دلَّ على نوعين من الرجال: أحدهما، رجل الدولة Homme d'Etat وهو الذي يقيم الحكم على سنن الحكم والاستقامة، والثاني، رجل الحكم Homme de pouvoir الماهر في الانتفاع بالظروف المحيطة به لتحقيق مآربه السياسية.(3)

والاستخدام المعاصر لهذه الكلمة يميز بين كلمتين Politics، وتعني عالَم السياسة، لما يشتمل عليه من سلطة وإدارة وقوة ونفوذ، وكل ما يتعلق بمؤسسة الدولة. أما الكلمة الثانية فهي Policy، وتعني برنامج عمل سياسي، سواء كان في النطاق الداخلي أو الخارجي.

وقد اختُلِفَ في أصل هذه الكلمة هل هي عربية أم أعجمية، وبغضِّ النظر عن هذا الجدل الفكري، فالثابت أن الكلمة قد استخدمت في العربية منذ فجر الإسلام على الأقل. وقد وردت في أمهات المعاجم العربية، ومنها لسان العرب؛ أن كلمة سياسة هي القيام على الشيء بما يصلحه، والسياسة فعل السائس، ويقال هو« يسوس الدواب، إذا قام عليها، والوالي يسوس رعيته».(4)

و قد استخدم المفكرون العرب الكلمة بمعناها الاصطلاحي، فهي تعني الرياسة كما يقول بذلك الفخر الرازي، وتعني كذلك فن ممارسة الحكم وما يدخل في هذا النطاق من استخدام أساليب الدهاء والحيلة.(5)

أما الماوردي فيرى « أن علم السياسة على الحقيقة يكون بعلم الدين وأصله، وطريقة الاستدلال بالشاهد على الغائب وبالمتفق عليه على المختلف عليه، وجهة استخراج الرأي وطريق النظر في العواقب، ومناظرة العمال والكُتَّاب والوزراء».[6]

ويرى أن صناعة الملك السياسة، وعلمُه حذْقُه بها، ومادته فيها وآلته جُندُه وأعوانه عملُه وخدمُه، ومادتُه رعيتُه، وثمرة عمله ما يحصل له من ثواب من الله العظيم في دار النعيم في الآجل، وحسن الأحدوثة عنه في الغائب والشاهد والآتي والحاضر، وزينة عمله وحُسنه الدال على حذْقِه بصناعته وتقدُّمه فيها عمارة مملكته وصلاح حال رعيته.[7]

والسياسة عند ماكيافيللي هي الصناعة التي يُقاد فيها الرجال للأشياء، والأشياء للرجال لتحقيق الغايات.[8]

وكان شُغلُ ماكيافيللي الشاغل هو السياسة، باعتبارها فن الحصول على النفوذ.[9]

وقد تعددت آراء الباحثين بصدد موضوع علم السياسة، واتُّخِذت فيه اتجاهات ثلاثة رئيسية:

1-علم السياسة هو علم الدولة. وهو الرأي الذي يمثله الاتجاه التقليدي الذي يرجع إلى المنهج الفلسفي، والذي يعالج به فلاسفة السياسة وفقهاء القانون الدستوري موضوعات المعرفة السياسية.[10]

ويؤكد أنصار هذا الاتجاه على أنهم امتداد للمدرسة اليونانية والرومانية في مجال دراسة السياسة، وهما المدرستان اللتان ركزتا على دراسة الدولة بوصفها موضوع علم السياسة الرئيس. ومن أهم الموضوعات التي يعالجها هذا الاتجاه، أركان الدولة والجوانب القانونية لتنظيم الدولة وسلطاتها.[11]

2-علم السياسة هو علم السلطة. وقد تعددت آراء الباحثين في صدد دراسة السلطة في نطاق المؤسسات الرسمية، بينما يذهب البعض الآخر إلى توسيع نطاق هذه الدراسة لتشمل معظم جوانب النظم الاجتماعية.[12]

وهناك فريق آخر منهم يهتم بدراسة النشاط المرتبط بالصراع من أجل السلطة، سواء من أجل الوصول إلى السلطة أو الحفاظ عليها. ويشير الفقيه الفرنسي بوردو ن إلى أن دراسة السلطة تعني دراسة مركبة من عنصريْن هما: القوة المادية، والفكرة التي تربط القوة

المادية بالغاية الاجتماعية. بمعنى أن السلطة هي القوة المادية لتحقيق غاية اجتماعية معينة، وهي تحقيق الخير العام والصالح العام المشترك.[13]

3- علم السياسة هو علم القوة: مفهوم علم السياسة عند هذا الاتجاه هو القوة، ومن ثَم فموضوع علم السياسة هو العلم الذي يدرس الصراع من أجل الحصول على القوة في المجتمع، استنادا إلى أن القوة هي الهدف المباشر لهذا الصراع. ويترتب على هذا أن علم السياسة يهتم بدراسة وسائل توزيع القوة في المجتمع ومصادر هذه القوة، وكيفية ممارسة علاقات القوة، ووسائل ضبط هذه الممارسة، كما أنه يهتم بدراسة بناء القوة في المجتمع بوصفه يمثل الأساس الذي تستند إليه العملية السياسية.[14]

ثانيا: القوة.

لقد كانت القوة – تاريخيا – ومازالت تمثل المقولة الرئيسة في العلوم الاجتماعية باعتبارها (القوة) المحرِّك للتاريخ العام كلّه.

وأن تعريف القوة، الذي نرغب من ورائه معرفة حقيقتها في مجال الحكم والسلوك العام للإنسان، يضطرنا إلى تتبع الأصول التاريخية والفكرية التي انبثق عنها هذا المصطلح كي نستبين مضمونه، وننتهي إلى الاهتمامات التي شغلت المفكرين قديما وحديثا وفي الفترة التي بينهما.

تعريفات القوة:

يعرف جميل صليبا القوة(LA FORCE) بأنها: القدرة، والشدة، والطاقة، وضدها الضعف، نقول: قوة الجسم، وقوة الفكر، وقوة الغريزة. كما تعني القوة أيضا القهر المادي والخارجي، أي الضرورة التي تستطيع الإرادة مقاومتها ومنه قولهم: استولى على الشيء بالقوة، وخضع للقوة. والقوة بهذا المعنى مقابلة للحق، لأنها ليست حقاً، وإنما هي وسيلة للدفاع عن الحق، أو لمنع صاحب الحق التمتع بحقه. والقوة هي مصدر الحركة والفعل، ومنه نقول قوة التحريك، وقوة الطبيعة. والقوة الميكانيكية هي السبب في التغيرات التي تطرأ على الحركة وتطلق على كل ما يفيد الجسم حركةً أو سكوناً.[15]

وإذا ما نظرنا إلى مصطلح القوة واستخداماتها في الفلسفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية نجد أنها مرت بمراحل:

أولاً: استخدمت لفظة القوة، كقدرة أو خاصية، وتعني القدرة على عمل أو إحداث شيء ما أو أي شيء. أو هي القدرة على التأثير في شخص ما أو شيء.

وقد استخدم لوك لفظة القوة power في كتابه مفاهيم إنسانية عام 1690 قائلاً:« إن القدرة هي واحدة من تلك الأفكار البسيطة التي نتلقاها عن طريق الإحساس والتفكير. لأننا نلاحظ في أنفسنا أننا نتصرف ويمكننا أن نفكر. وأننا نستطيع عند الارادة أن نحرك أجزاء عدة من أجسادنا، بعد أن كانت ساكنة، وأن نلاحظ أيضا الآثار التي يمكن أن تحدثها الأجسام الطبيعية في بعضها البعض، الأمر الذي تدركه حواسنا في كل لحظة. فنحن نصل إلى فكرة القدرة بهذين الطريقين».[16]

القدرة عند لوك ذات شقين، فهي قدرة على الفعل وهي قدرة إيجابية، وقدرة على التلقي، وهي قدرة سلبية.

ثانياً: استخدمت لفظة القوة power، بالمعنى السياسي عند احتدام الصراع السياسي وظهور الدولة القومية في أوروبا في القرن 18. فضلا عن استخدامها في المجال السياسي في معانٍ متعددة، كالقوة السياسية والقوة القومية وتوازن القوة.

ثالثاً: وقد استخدمت لفظة القوة power، في ما يتعلق بالأشياء الجامدة، بمعنى القدرة على إحداث أثر ما. وقد استخدم ويليام شيكسبير لفظة power في مسرحيته «روميو وجولييت» في البيت الرابع والعشرين، في المشهد الثالث من الفصل الثاني قائلا: «و في داخل القشرة الغضة لهذه الزهرة الضعيفة يسكن السم، وقوة الدواء.»

كما استُخدِمت لفظة القوة power، بمعنى السيطرة على الآخرين وامتلاك ناصية أمورهم. هذا فضلا عن استخدامها بمعنى الحكم والسيطرة والنفوذ والضبط والسلطة.[17]

وقد استُخدِمت لفظة القوة من الناحية القانونية بمعاني، القدرة القانونية، والقدرة على العمل أو السلطة اللَّازمة لذلك. وخاصة السلطة المخولة، والتخويل أو الترخيص. والسلطة النوعية التي تُمنح لشخص أو أشخاص بصفة معينة. وقد استخدمت اللَّفظة

هذه بمعنى الشخص أو الشيء ذي النفوذ أو الحاكم، وكذلك في الاستخدام المتأخر فضلا عن استخدامها بمعنى دولة أو أمة من وجهة نظر سلطتها أو نفوذها الدولي.[18]

رابعاً: استخدمت لفظة القوة power بمعاني تكتيكية. فمعناها الحديث في الرياضيات هو حاصل ضرب «رقم» معين في «رقم» آخر لمرات معينة، والقوة الأولى لأي رقم أو كمية هي الرقم نفسه. والقوة الثانية هي مكعب الرقم أي حاصل ضرب مرجع الرقم في الرقم نفسه.

والقوة تعني، أي شكل من أشكال الطاقة Energy، أو القوة المتاحة للاستخدام كالطاقة الميكانيكية المعينة، (كقوة الجاذبية والماء الجاري والريح والبخار والكهرباء). وذلك كأشياء تتميز عن العمل اليدوي، أ وكأشياء يُنظر إليها كسلعة تباع بكميات محدودة.[19]

والقوة عند ديكارت، هي مساوية لحاصل ضرب الكتلة x السرعة. (ق = ك . س)، في حين تعني القوة عند ليبنتز: نصف الكتلة المضروبة في مربع السرعة. (ق =ك . $س^2$).[20]

ويذهب راسل إلى أن مفهوم القوة هو المفهوم الأساسي في العلوم الاجتماعية، شأنها في ذلك شأن الطاقة Energy التي تمثل المفهوم الأساسي في العلوم الفيزيائية، و التي لا يمكن ملاحظتها إلَّا بعد استخدامها فقط. إذ أننا لا نعلم أن (أ) قوة على (ب) إلَّا بعد أن يتغلب على مقاومته، أي يمارس (أ) قوته بالفعل ويقضي على مقاومة (ب). وللقوة أشكال مثل: الثروة، والأسلحة، والسلطة المدنية، والتأثير على الرأي. وإذا رجعنا قليلا إلى الوراء نجد السيطرة الدينية تلعب دورا لا يمكن إغفال آثاره الجسام على حركة التاريخ. ويمكن أن نستدل من ذلك على أن القوة المؤثرة، هي محصلة الأشكال المختلفة للقوة ويمكن أن نسميها القوة السياسية، إذا كانت القوة تعني إدارة شؤون المجتمع بشتى مناحيها.[21]

من خلال هذا العرض المختصر لمفهوم القوة، لابد من الاعتراف بالصعوبة البالغة التي تعترض إمكانية إعطاء تعريف دقيق للقوة. حيث نجدها في كل الأنساق التي ترتبط بها حياة الإنسان. كما أن تعريف القوة لم يسلم من الشِراك المنطقية العديدة ؛إذ قد تتداخل

معه وفيه مفاهيم عديدة مثل: السلطة والنفوذ والسيطرة والهيبة، وما إلى ذلك من المصطلحات التي تستدق الفروق بينها؛ بحيث يصبح من العسير التفريق الكامل بين بعضها البعض.

غير أن ما يعنينا في موضوع القوة هنا، هو استخدامها كوسيلة من طرف الحاكم أو معاونيه من وزراء وقادة جيوش وقضاة، أثناء ممارسة الحكم أو الشأن العام.

القوة عند ماكيافيللي:

السلطة السياسية عند ماكيافيللي، هي قوة يجب امتلاكها من أجل إقامة الدولة. بل أنه فكّر في الدولة كقوة تقوم على الضرورة والتدخل في الواقع من أجل التحكم فيه. وإذا كانت الدولة في نظر " روسو " وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان، وأن هذا الأخير هو الغاية التي ينبغي أن تنصهر فيه كل الغايات، وإذا كانت ذات الدولة، في نظر القدماء (أفلاطون وأرسطو مثلا)، هي وسيلة لتحقيق السعادة أو الفضيلة أو الحكمة، فإنها عند ماكيافيللي قوة فعَّالة، غايتها التسلط والإكراه. لذلك، كان علم السياسة علما بآليات هذه القوة السيكولوجية والمؤسساتية، التي تجعل منها سلطة لا تُقهر. لم يرد ماكيافيللي أن يفكر في السياسة من منطق ما هو حق. فالسياسة ، كفكر وكممارسة، ليست أبدًا مسألة حق، بل هي مسألة واقع وضرورة وقوة، تشتغل جميعًا لأجل تحقيق غايات المنفعة.[22]

وإذا كان أرسطو قد جعل مبحث الأخلاق جزءًا من مبحث السياسة فإن هذا بالذات ما سيسعى ماكيافيللي إلى إقصائه، فقد بحث بشكل مختلف تمامًا عما كان أرسطو يدعو إليه، من اعتباره الهدف من السياسة هو تكوين نفوس المواطنين وتعليمهم بشكل أفضل لممارسة كل الفضائل. ودعا إلى إرساء منطق جديد للدولة، هو منطق يقوم أساسا على الانفصال التام عن مقولات الفضيلة والحكمة الأخلاقية. وقد ارتبط مفهوم الدولة عند ماكيافيللي بمفهوم القوة، ومادامت الدولة قوة، فلها إذن، الحق أن تدافع عن نفسها بكل الوسائل المتاحة لها، لأن استمرار وجودها مرهون بقوتها القادرة على تأمين سيادتها. إن النظرة الواقعية للدولة، كما يتصورها ماكيافيللي، والذي ما فتئ يجتهد بكل ما أوتي من خبرة استقرائية تاريخية، وما جُبل عليه من ذكاء ذهني ونباهة سياسية، إلى

البحث عن الآليات التي تحمي الدولة وتصونها من كل ما من شـــأنه أن يهـــدد أمنـــها واستقرارها. ولكن، ما الذي يبرر سيادة الدولة وسلطتها ؟

ليست مهمة الدولة، في نظر ماكيافيللي، محصورة فقط في إقامـــة جهـــاز للقضـــاء يُبتُّ في المنازعات العامة والخاصة، وتحقيق الأمن العمومي بوساطة القوة، وإن كان هذا أحد مهامها الأساسية، لارتباطها بالاستقرار المجتمعي، بل لابد لها أيضا أن تجعل مـــن ذاتها دائمًا دولة حرب. ومن هنا كان " فن الحرب " أحد فنون الدولة الأساسية الـــتي تضاف إلى فنون التدبير الأخرى، السياسية والاقتصادية ... بل حتى فنون التدبير هـــذه عليها أن تجعل فن الحرب نموذجًا لها. وفن الحرب عند ماكيافيللي له معنى ســـيكولوجي عام وبراغماتي، ولا يقتصر فقط على الاقتتال والنزاع والصراع والمغالبة. إن " فن الحرب " ، وهو عنوان كتاب لماكيافيللي، يمثل جوهر نظريته في السياسة وأساس مهام الدولـــة الوطنية. فالدهاء السياسي والتبصر والمكر واختيار أنجع الوسائل لتحقيق غايات السيطرة والقوة، هي كلها أدوات وخصال تدخل ضمن فن الحرب التي ينبغي للقائد السياســـي الناجح أن يلتزم بها، وأن يجعلها في الصفحات الأولى لقاموسه السياسي البراغماتي.

و من هنا، يمكننا اعتبار " الأمير" كتاب السياسة الأول في العصر الحديث، الـــذي اعتبر فن الحرب جزءًا من ماهية الدولة. يقول ماكيافيللي ناصحًا الأمير: « وعليـــك أن تدرك أن ثمة سبيلَيْن للقتال: أحدهما بواسطة القانون والآخر عن طريق القـــوة. ويلجـــأ البشر إلى السبيل الأول، أما الحيوانات فتلجأ إلى السبيل الثاني. ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية لتحقيق الأهداف عادة، فإن على الإنسان أن يلجأ ،تبعًا لـــذلك، إلى الطريقة الثانية. ومن الضروري للأمير أن يعرف استخدام الطريقتين معـــا، أي طريقـــة الإنسان وطريقة الحيوان».[23]

المبحث الثالث: الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية.

علم السياسة علم قائمة بذاته كما أن علم الأخلاق هو الآخر علم له موضوعه ومنهجه لكل هل هذا التميز بين العلمي يفرض الاستقلالية بينهما ؟ وإذا كان علم الأخلاق لا يرتبط بعلم السياسة باعتبار موضوعه يخص سلوك الفرد كشخص تجاه قيم عليا مثالية هدفه سعادة

الإنسان الشخصية فهل العكس صحيح ؟ أي هل يسمح لرجل السياسة أن لا يتقيد بالقيم الخلقية أثناء ممارسته للحكم ؟ وهل يبرر أمن الدولة واستقرارها في بعض الظروف تجاوز الأخلاق؟ وهل وظيفة رجل السياسة وعالم السياسة يسمحان بتجاهل الأخلاق وأحكامها ؟ وهل الفضائل السياسية أشرف من الفضائل الأخلاقية؟

إن العلاقة بين الفضائل السياسية والفضائل السياسية ليست حديثة الوجود ولاهي مرتبطة بفكر ماكيافيللي كما هو شائع لدى المشتغلين بالحقل السياسي أو الغالبية منهم على الأقل، بل هو متجذر في أصول الفلسفة السياسية. فقد تحدث أفلاطون عن الكذب وهو رذيلة أخلاقية ولكنه قد يكون فضيلة سياسية فقال: " إذا كان من حق أشخاص آخرين (غير الأطباء) أن يكذبوا، فهذا الحق يعود إلى رئيس المدينة كي يخدع أعداءً أو مواطنين لأجل مصلحة المدينة. والكذب خطر على أي شخص آخر ".[24]

وهذا على ما يبدو هو مبدأ التعارض بين الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية ويبدو منذ البداية أن الأولوية هي للسياسة على حساب الأخلاق وهو ناقشه ماكيافيللي في نظراته السياسية. فقد ميَّز بين نوعين من الفضائل، كما سلف ذكره، هما الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية، وجعل لكل منهما يناقش مسألة الفضائل الأخلاقية من وجهة نظر ماكيافيللي السياسية الذي فصل بين الممارسة السياسية التواقة إلى تحقيق المصالح العامة للمجتمع برمته، والممارسة الأخلاقية ذات الطابع الشخصي فقط.

إن مرجعية ماكيافيللي الفكرية هي واقعه السياسي والاجتماعي والتاريخ وخاصة التاريخ الروماني، وبالتالي فنظرية السياسية هي استقراء العصر بكل ملابساته. ولا يخفى على مؤرخي الحضارات والأحداث العامة أن عصر ماكيافيللي كان يعج بالممارسات الأخلاقية سواء من طرف الشعب أو الساسة الذين كانوا مثالاً للخداع والكذب وعدم الاعتراف بالثقة أو الصداقة أو الحب في علاقاتهم السياسية، لكن هذا الأمر لم يكن ليزعج ماكيافيللي بل اعتبر شيئًا طبيعيا في مجال العمل السياسي لا المجال الأخلاقي. لأنه، كما سبق ذكره في بداية هذا البحث، يميِّز تمييزًا منهجيا بين ما يربط الحاكم بالمحكومين أو بالحاكم الآخر وبين ما يربط شخصا بشخص آخر. وقد اعتبر أخلاق الحاكم

الشخصية مسألة شخصية فهو لا يدعوه إلى التحلل منها، ولكن هذه الأخلاق الشخصية لا تجعله بالضرورة أهلاً لقيادة دولة لعدم تمتعه بالفضائل السياسية المطلوبة في هذه المهمة العامة. ويعضد ماكيافيللي هذا الموقف الواقع العملي الذي عايشه وقرا عنه في تاريخ الحكومات وسير الشخصيات السياسية والحربية واستشف من ذلك أن الكثيرين الذين جعلوا من فضائلهم الأخلاقية عاملا قويا لسقوط دولهم وخسارة شعوبهم. و" يحسن بنا أن نلاحظ أن ماكيافيللي لم يشغل باله في كتابه بأخلاق الأمير الخاصة وسيرته الشخصية، وإنما تناول الأمير باعتباره ممثلا للدولة ورأسًا لها ". (25)

يطرح ماكيافيللي مجموعة من الفضائل كفضيلة الكرم، الخوف، النفاق، القوة، التظاهر، الصدق، الكراهية، المحبة ...وإذا كان ماكيافيللي قد مدح أمراءه على ما قاموا به من أعمال فاضلة كالدق والرأفة والكرم، إلاَّ أنه يؤكد بقوله: " إن الطريقة التي نحيا بها، تختلف كثيرًا عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها، وإن الذي يتنكر لما يقع سعيًا منه وراء ما يجب أن يقع، إنما يتعلم ما يؤدي لدماره بدلاً مما يؤدي إلى الحفاظ عليه". (26)

على أن هذه الفضائل التي قدمها ماكيافيللي كفضائل سياسية يتعين على الحاكم أن يلزم بها لتحقيق غايات سياسية محضة، تحتاج إلى توضيح من صاحبها. فقد تبدو بعض الفضائل إيجابية من حيث مفهومها وقد تبدو أخرى سلبية أيضا من نفس المنظور لكنها في نظر ماكيافيللي غير ذلك تماما.

وسنشرع في مناقشة هذه الفضائل وما الذي يجب على الحاكم الالتزام به وما الذي عليه أن يتخلّى عنه.

أولا: فضيلة الكرم.

يتساءل ماكيافيللي عن إيجابيات هذه الفضيلة في الحقل السياسي وعن سلبياتها ي ذات السياق، وعن الكيفية التي يجب على الحاكم أن يستخدمها بها حتى تؤدي غاياتها السياسية.

بدأ ماكيافيللي الحديث عن فضيلة الكرم فامتدحها باعتبارها صفة إنسانية تستحق كل الاحترام، غير أن نظرته إلى هذه الصفة تختف عن نظرة رجل الأخلاق أو الإنسان العادي المتشبع بالقيم الخلقية. فمن الجيد والحسن أن يكون الحاكم كريمًا، ولكن في

الوقت ذاته ليس من الضار، حسب ماكيافيللي ، أن يكون الحاكم بخيلاً. وهنا يطرح التساؤل هل من الممكن أن يكون الكرم رذيلة خلقية ؟ وفي المقابل، هل يمكن أن يكون البخل فصيلة خلقية ؟ وماهي المبررات في هذا وذاك ؟ يحاول ماكيافيللي أن يجيب عن هذه التساؤلات واضعًا الكرم في سياقه السياسي لا الأخلاقي منطلقا من حصر اهتمامه بالمصلحة العليا للدولة التي تتحقق معها المنفعة العامة للمواطنين على المستوى الداخلي والحرية على المستوى الخارجي.

يؤكد ماكيافيللي أن ممارسة الحاكم لفضيلة الكرم ستؤدي إلى ضرر بالغ الخطورة على الدولة والمجتمع على السواء إذا لم تمارس بالطريقة الصحيحة لأن الأمر يتوقف على الحالة التي يكون فيها الحاكم كريًا أو بخيلا.

وسنناقش هذه الفضيلة السياسية في حالات ثلاث:

الأولى: إذا كان كرم الحاكم منشأه أموال الدولة، فهو يسرق شعبه لا محالة، لأنه إذا رغب في أن يكون كريما بالمعنى الأخلاقي فإنه يضطر إلى فرض ضرائب باهظة على شعبه، وبالتالي فهو يسرق شعبه بسلطته وبالقانون الذي يضعه، ويكون كرمه على حساب خزينة الدولة، التي ستصبح بالنتيجة فقيرة وعاجزة بالتالي على الصمود في حالات الطوارئ والأخطار المحدقة، خاصة وهنا يتحول الكرم إلى إسراف مذموم سياسيا. وهذا ما لا ينبغي أن يصل إليه أي حاكم مهما كانت الأسباب. ولا ينبغي، في مقابل ذلك، أن يعرف الحاكم بين شعبه بالبخل والتقتير بل على العكس من ذلك إذ يؤكد ماكيافيللي على أنه من المفيد أن يُشتَّهَر الحاكم بصفة الكرم من خلال قيامه بأي عمل بسيط متعلق بالكرم دون أن يكون كريمًا بالفعل[27]. ويحذر ماكيافيللي من الإسراف خاصة إذا في الأمور الكمالية لمجرد رغبة الحاكم في الظهور بمظهر الكرم. فالبخل قد يكون فضيلة عظيمة إذا أحسن الحاكم توظيفه والكرم رذيلة عظيمة إذا أساء استخدامها بل عليه أن لا يفكر فيها بالفعل أبدًا وذلك لمصلحة شعبه فيقول: " وسيرى الناس مع مضي الزمن أنه أكثر سخاءًا مما كانوا يظنون، وذلك عندما يرون أنه عن طريق تقتيره أصبح يكتفي بدخله، ويُؤَمِّن

وسائل الدفاع الكافية ضد كل من يفكر بإشهار الحرب عليه، ويقوم بمشاريع كبيرة دون أن يرهق شعبه . ويكون بذلك كريما للغاية "[28].

وكعادته يعزر ماكيافيللي رأيه بأمثلة حية من واقعه أو من التاريخ، فملك فرنسا البابا يوليوس الثاني المعاصر له كان حاكما مقتصدًا يحافظ على أموال شعبه بفضل تقتيره، وقد أعجب به ماكيافيللي وقال فيه: "قد قام ملك فرنسا الحالي بشن عدة حروب دون أن يفرض على شعبه أية ضرائب استثنائية، لأنه غطى بتقتيره الماضي جميع النفقات الطارئة التي تعرَّض لها".[29]

وعليه يمكن الثناء على صفة البخل اعتبارها فضيلة سياسية حتى وإن بدت رذيلة أخلاقية. وأن الرشاد السياسي يقتضي الحكم على الشيء بنتائجه لا بمبادئه.

الثانية: حصر فضيلة الكرم في حالة واحدة وهي عند زحف الأمير على رأس جيش، فالكرم هنا يصبح ضرورة ملحة، لأن الجنود لن يتبعوا الحاكم ولن يخلصوا له الولاء إلاَّ بقدر ما يكون معهم سخيا. يقول ماكيافيللي: " ولا ريب في أن الجو ضروري على الأمير الذي يزحف على رأس جيوشه، ويعيش على ما ينهبه ويسلبه ويحصل عليه من الفديات ويتصرف بأموال الآخرين، إذ لو لم يكن شخصيا لما تبعه جنوده ".[30] وعليه فالكرم ليس رذيلة مطلقة والبخل فضيلة مطلقة من الناحية السياسية وإنما هذه الصفة أو تلك تتحكم فيه الظروف والمصلحة العليا للدولة والمنافع التي تعود على الشعب.

وفي هذا يقول ماكيافيللي: " فعلى الأمير أن يكون كريما وبخيلا تبعا للحاجة، قاسيا وحليما تبعا للظروف "[31].

ثانيا: فضيلة الخوف.

يعالج ماكيافيللي هذه الفضيلة في الفصل السابع عشر من " الأمير " ومن خلال الكلام عن القسوة واللين، والمقارنة بين محبة الناس للأمير وخوفهم منه. وإذا كان من المحبب أخلاقيًا أن يكون الأمير معروفا بالرأفة دون القسوة، لكن لا ينبغي أن يسيء استعمال الرأفة لأنها قد تؤدي إلى نتائج غاية في السوء. ويضرب

ماكيافيللي مثالا من عصره على فضيلة القسوة لا الرأفة: "كان قيصر بروجيا معتبرًا قاسيًا، ولكن قسوته سكَّنت رومانا، ووحدها، وجلبت إليها السلام والأمن "[32] ولو كان لينا رؤوفا لضيع هذه الغاية التي استفاد منها كل الشعب كما حدث لأهل فلورنسا الذين أرادوا اتقاء الاتصاف بالقسوة فأمروا بتدمير بيستويه. فالأمير لا يخشى أن يتصف بالقسوة في سبيل توحيد شعبه، لأن قسوته تكون أشد رحمة من الأمراء الذين يتمادون في اللين. ويسمحون بالقلاقل التي تجلب القتل والسلب، وهذه تصيب الشعب كله، أما قسوة الأمير فلا تصيب إلاَّ فردا أو أفردًا.[33] وعلى الأمير الناجح سياسيًا أن يرعى بنفسه كل الشؤون المتصلة بالدولة خاصة إذا كان حديث العهد بالحكم، بل يجب عليه أن يمارس القسوة لأن الإمارات الجديدة محفوفة بالمخاطر المحدقة. ولكن مع ذلك ينبغي للأمير أن يسير باعتدال بخصوص الرعية ومعاونيه فلا يفقد الحذر بشدة ثقته في حاشيته ولا يكون من القسوة بحيث لا يحتمل.[34] والخوف الذي يتحدث عنه ماكيافيللي هو خوف له أهدافه السياسية، وقد وظفه توظيفًا ماكرًا مبرزًا إيجابياته في استتباب الأمن في المجتمع واستمرار الإستقرار السياسي. وهنا لابد للعود إلى طرح السؤال الذي أشرنا إلى مضمونه آنفا وه : أيهما أنفع للأمير أن يكون محبوبًا أكثر مما يُخشى أم مهابًا أكثر مما يُجب ؟ والجواب يتلخص، في أنه من الواجب يحبك الناس ويهابونك يحبوك، هذا إذا توجب عليك الاختيار بينهما[35].

ويبرر ماكيافيللي رأيه هذا بأن " الناس أسرع إلى الإساءة إلى من يحبون منهم إلى الإساءة إلى مَن، يرهبون، لأن الحب قائم على نفعهم الذاتي، فإذا انتهى هذا النفع ذهب الحب، أما الخوف فأساسه العقاب، ورهبة العقاب لا تزول مطلقا "[36].

ومع ذلك، على الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقة، يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحب، ولكن هل يمكن الجمع بين الخوف من الحاكم وعدم كراهية الشعب له؟ يمكن الجمع، في نظر ماكيافيللي، في حالة واحدة وهذا ما ينبغي أن يفعله كل حاكم. وهي عدم تدخله في ملك رعيتهن أو في شؤون نسوتهم، وإذا اضطر لإعدام واحد منهم لا يفعل ذلك إلاَّ إذا كان هناك سبب كاف ظاهر. كما يجب عليك أن لا

يعتدي على ملك الغير. وهذه النقطة قد أخذت اهتمام ماكيافيللي وجعلته يركز عليها حتى تؤدي فضيلة الخوف أهدافها المرجوة، وفي الوقت نفسه تحقيق فضيلة عدم الكراهية لاستتباب الأمن العام. ويقول مبررًا ضرورة عدم امتداد أطماع الملك الشخصية إلى ما عذر رعيته من ممتلكات: " أن الناس أسرع إلى نسيان مقتل آبائهم منهم إلى نسيان ما لحق بأملاكهم وأمتعتهم من الخراب والاغتصاب، ثم أن أسباب الاغتصاب كثيرة الحدوث بخلاف أسباب الإعدام، فإنها نادرة "[37] أما في حالة الحرب فلا خيار للأمير إلاَّ أن يتصف بالقسوة التي تضمن له المحافظة على جيشه وطاعته، ويضرب ماكيافيللي مثالا على ذلك أن هانيبال كان يقود جيشا عرمرمًا مكونا من خليط من سائر الأمم، وكن هذا الجيش يحارب في أرض غريبة، ومع ذلك كله فلم يحدث أنه وق خلاف أو شقاق في صفوه لدى الفوز أو الهزيمة. و لم يكن لهذا سببًا سوى قسوته التي خرجت عن حدود الطبيعة الإنسانية، مضافة إلى فضائله الأخرى، فكان على الدوام محترمًا مهابا في نظر جنوده. ولا تكتمل البرهنة على قيمة القسوة إلاَّ إذا أمكن إبطال قيمة نقيضها ونعني بها اللين. فلم يغفل ماكيافيللي تكراره الاستهانة برذيلة اللين والرأفة إذا ما اتصف بها الحاكم لأن نتائجها وخيمة على المستوى الداخلي والخارجي على السواء. ويضرب لذلك مثلاً **بسيبيو** الذي كان ذا فضائل شتى، و لم يكن قاسيا، فتمرد عليه الجنود في إسبانيا، لأنه كان رحيمًا بهم، يعطيهم من الحرية ما لا يعطيهم إياها غيره مما جلب إليه انتقادات لاذعة من الكثير "[38].

وتبرز أهمية فضيلة الخوف ترقى بالشعب إلى تحقيق فضائل أخرى كالشجاعة والقوة المفضيتان إلى فضيلة أخرى هامة هي الحرية. ولكن كيف يمكن لفضيلة الخوف أن تحقق في النهاية الحرية ؟

يربطماكيافيللي فضيلة الحرية بالسياسة الخارجية القائمة على الغلبة والتنافس ونزعة التوسع طلبًا للامتيازات وتحقيقا لطموح الزعماء اللامحدود. ولابد للقائد، إذ أراد أن يدفع عنه وعن رعيته هذه الأخطار، أن يواجه أعداء بأقصى ما يملك من صفات الشيء وإمكانيات القوة: " فإن الحاكم الشجاع والقوي يتغلب دائما على المصاب، برفع

معنويات رعاياه من ناحية، والتأكيد لهم بأن هذه الشرور لن تطول، وتخويفهم من فظاعة العدو وقسوته والاطمئنان دائما إلى أولئك الذين يظهرون منتهى الشجاعة "[39]. وهذه الفضيلة كما ذكرنا تحمل في ثناياها أسس الحرية والقوة، وإرساء فضيلة الشجاعة ومحبة الوطن من خلال إبراز الخوف من العدو الذي يدفعنا إلى الحفاظ على حريتنا. إن الخوف من العدو القوي والقاسي يزيد فينا الرغبة في التسلح بأفضل المهارات السياسية للحفاظ على أنفسنا أحرارًا.

يمجد ماكيافيللي فضيلة القوة ويجعلها أفضل وسيلة سياسية للحكام، وما يزيدها قيمة وسموًا هو ربطها على الدوام بالمصلحة العليا للدولة وبالحرية. ومن ثم يدعو ماكيافيللي الأمير إلى استخدام القوة والوحشية وأساليب الإكراه، ويعتبره من الضرورة بمكان للحفاظ على الدولة. فشؤون الدولة والحكم لا ترتبط بالأخلاق ولا بالمبادئ الشخصية للحاكم، بل تتعدى إلى هدف أسمى وأنبل من ذلك هو مصلحة الدولة. فالأخلاق قد تكون أداة فشل والقوة أداة نجاح.

ومن أمثلة ذلك أن **بيير وسورديني** الذي استخدم الأناة والطيبة عوضًا عن القسوة والقوة فيمن كانوا يعارضون لإعادة **أل مديتشي** للحكم، ظنا منه أن بذلك يطفئ ما لديهم من نوايا شريرة لإسقاط الحكومة بدافع الحرص على بلده وأمنها وتجنب القسوة والقوة، وقد نتج عن ذلك ضياع سمعته ومكانته وأسهم في سقوط حكومته بسبب الفتن والأحزاب والشيع المتناحرة المتنافسة "[40].

أما عن القوة فيذكر لنا ماكيافيللي حادثة تاريخية قاسية ولكنها غاية في الأهمية لما تحمله من غاية نبيلة في نظر الرومان، لأن الوضع الذي عاشته المدينة كان سيعرف بداية مأساوية عامة والحل فيها أكثر تعقيدًا. فقد صراعات في مدينة " كابو " بسبب البغضاء القائمة بين الشعب ومجلس الشيوخ، فقد أدرك أحدهم وهو " **باكوفيوس كاليفوس** " خطورة أن تعرض المدينة للفتن، وقد حاول بكل جهده إيجاد تفاهم بين الشعب والنبلاء، إلاّ أنه لم يفلح، فقام باستدعاء مجلس الشيوخ، وأخبرهم بمدى كره العامة لهم، وخطورة

تعرضهم للقتل نتيجة ذلك، فضلاً عن خطورة تسليم المدينة لهانيبال، وأقترح بأن يغلق عليهم أبواب قصر،

ثم دعا الشعب لاجتماع أبلغهم فيه أنه قد حان الوقت لإذلال كبرياء النبلاء لما ألحقوه بالشعب من ضرر، وقرر قتل جميع أعضاء مجلس الشيوخ، وتعيين أعضاء جددًا بدلا منهم، ووضع جميع أسماء أعضاء المجلس على أوراق في كيس، وقد بسحب الأوراق، وكل من سحبه اسمه قام بإعدامه وإيجاد من يخلفه من الشعب[41].

إذا نظرنا إلى هذا العمل لابد أن نصفه بأنه أسلوب مناف للأخلاق وللآداب العامة من منظور أخلاقي لما ينطوي عليه من أساليب دنيئة وفظيعة لكن إذا نظرنا إلى نتائجها فإنها جنبت المدينة فتنة كبرى وأعادت إليها الوحدة والأمن وهذه الغاية النبيلة والسامية ما كانت لتتحقق في نظر ماكيافيللي لولا القوة والقسوة التي حافظت بها المدينة على حرية مواطنيها ومساواتهم، وعليهم فلام جال هنا للتفكير بالعواطف الإنسانية أو إقحام القيم الخلقية للحكم على مثل هذه الأعمال.

لكن مدح ماكيافيللي لفاعلية فضيلة القسوة والقوة لا يعني أنه يجعل منها أداة للحكم بصورة مطلقة، فقد تستعمل في حالات ظرفية كالوصول إلى السلطة أو القضاء على فتنة، وبعد ذلك على الحاكم أن يقوم بإجراءات أخرى لتمتين حكمه واستمراره يقول ماكيافيللي: " لا يمكننا أن نطلق صفة الفضيلة على كل من يقتل مواطنيه، ويخون أصدقاءه، ويتنكر لوعوده، ويتخلى عن الرحمة والدين، وقد يستطيع المرء بواسطته مثل هذه الوسائل، أن يصل إلى السلطان، ولكنه لن يصل عن طريقها إلى المجد "[42].

وهنا، لابد من الإشارة إلى أن ماكيافيللي لا يعتبر من يقوم بهذه الأعمال فاضلاً وإن كان مع ذلك قد وصل إلى مرتبة الزعماء المشهورين، فقد يشتهر الحاكم ويصبح زعيما لكنه لا ينال المجد. وماكيافيلليإذ يحض على استعمال القوة ويعتبرها فضيلة سياسية إلاَّ أنه يقيد استخدامها بقيود حتى تؤدي الغاية المقصودة، فهو لا يحبذ القوة المرتبطة بالفظاعة الوحشية الخالية من الشعور الإنساني والمليئة بالمظالم ولا يدعو إليها، وإنما يفضلها كوسيلة ضرورية لتحقيق بعض الأهداف المحدودة. فالمشكلة عند ماكيافيللي ليست في

فاقدي الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية وإنما في أولئك الذين بحثوا عن الشهرة والمجد وتحويلهم المصلحة العامة إلى مصلحة خاصة، وقد تحولوا إلى طغاة فجلبوا لأنفسهم السمعة السيئة والكراهية والاحتقار بل والغضب والاحتقار، وليس هذا ما يدعو إليه ماكيافيللي على الإطلاق بواسطة استخدام القوة لأنه هو ذاته يرفض الاستبداد، وغايته هو استقرار الدولة وإحقاق النظام فيها. وهنا تكون القوة وسيلة فعالة لتحقيق ذلك تضاف إليه الحرية والعدالة والمساواة على الرغم من أنها مرفوضة أخلاقيا.

وعودة إلى السؤال الذي طرحناه من قبل فيما إذا كان من الأفضل أن يكون الحاكم محبوبًا أو مهابًا، نقول أن الناس تحب وتبغض بإرادتهم، ولكنهم يهابون الأمير بإرادته، والأمير الحازم ينبغي له أن يعوِّل على ما في قدرته، لا على ما في قدرة الغير، وكل ما يجب عليه هو أن يتقي بعض الناس له[43].

ثالثا: فضيلة النفاق أو التظاهر.

ولها علاقة بشكل أو بآخر بفضيلة القوة ويعتبرها ماكيافيللي إحدى أسس النجاح رغم أنها بميزان الأخلاق ممقوتة ومكروهة.

وسنناقش هنا النفاق والتظاهر على أنهما فضيلتان سياسيتان واجبتان لإحراز النجاح السياسي وفق ما يراه ماكيافيللي، وكذا دورهما في الممارسة السياسية وما تحققانه من أهداف لصالح الدولة. ولكن لنتساءل: هل أراد ماكيافيللي أن يجعل من النفاق في السياسة ميزة ذاتية لشخص الحاكم أم ميزة لهدف سياسي أسمى ؟

ويجيب ماكيافيللي عن هذا السؤال في خلاصة الفصل الخامس عشر من الأمير: "ويجب عليه أن لا يخشى عار المعايب التي يصعب عليه بدونها الاحتفاظ بالمُلك، لأن الإنسان إذا أمعن النظر رأى أنَّ كثيرًا من الأمور التي تظهر له أنها فضائل قد تؤدي به غلى الخراب إذا اتبعها، وكثيرًا مما يبدو وكأنه من الرذائل قد يؤدي إلى الخير والسلامة "[44].

ولتوضيح أهمية فضيلة النفاق أو التظاهر يحسن بنا مناقشة ذلك من خلال أهـــدافها الأساسية على المستويين الداخلي والخارجي:

فعلى **المستوى الداخلي**، قد يتراءى العالمالأخلاق كما لعامـــة النـــاس أن النفـــاق والتظاهر أنهما صفتان سيئتان يتصف بهما الحاكم كشخص محـــاورًا تزييـــف الأشـــياء واستغلالها لمصالحه الخاصة كالبقاء في الحكم وتحصيل المزيد من المكاسب الشخصية التي يرغب فيها كل حاكم متجاهلين أن يكون لهذه الفضيلة أهدافًا أخرى خارج هذا الإطار الضيق، ونعني بذلك أهدافًا سياسية عليا تتعلق بمصلحة الدولة وكيانها. وعلى الأمـــير أن يحسن النفاق، أي أن يعرف متى وكيف يتظاهر بشيء ويقوم بنقيضه إذا رأى ذلك يخدم أهدافًا سياسية نبيلة تعم منفعتها الشعب بكامله. يقول ماكيافيللي: " فمـــن الخـــير أن تتظاهر بالرحمة وحفظ الوعد والشعور الإنساني النبيل والإخلاص والتدين، وأن تكـــون فعلاً متصفًا بها، ولكن عليك أن تُعد نفسك، عندما تقتضي الضرورة، لتكون متصـــفا بعكسه "[45].

و لم يطلب ماكيافيللي من الحاكم أن يتنكر للخصال الحميدة لذاتها أو من تحقيق مآرب شخصية ممقوتة، فهذا لا يخطر على بال عاقل وإن قل زاده المعرفي والتعليمي فضلاً عن مفكر بحال ماكيافيللي، وإنما يحصر ذلك في المجال السياسي الذي يضطلع فيه الحاكم بمســـؤوليات كبيرة تفرض عليه غايات أخلاقية وهي وجوب حماية الرعيـــة بتـــوفير الجـــو السياســـي والاجتماعي المناسبيْن لممارسة حقوقهم ومنها الحرية والعدل والمساواة، والتي لا يكتب لهـــا الوجود إلاّ في ظل دولة قوية مستقرة والتي يعد النفاق والتظاهر إحـــدى الوســـائل الهامـــة لتحقيقها. وعلى الأمير أن يتظاهر بالتحلي بالصفات الخمس الذي ذكرها آنفا.

فلا يرى فيه الرائي ولا يسمع منه السامع إلاّ الأمانة والعفة والتقوى وحب الإنسانية، وأهم تلك الصفات صفة التقوى أو التدين، لأن الرجال يحكمون عادة بالنظر لا بالخبرة، وكل الناس ترى فيك مظاهرك، وقليلون يلمسون حقيقتـــك، وهـــؤلاء القليلـــون لا يستطيعون أن يقاوموا الكثيرين المحتمين بسلطة الأمير. ويستشهد ماكيافيللي بمثال وقـــع في عصر قائلا: " إن أحد الأمراء المعاصرين نفضل أن لا نذكره، لا همَّ له إلاَّ الثناء على

السلم والأمانة، ولكنه في الواقع عدوٌّ شديد لهما، ولو أنه راعى أحدهما لفقد ملكه "[46] ويقصد **فردناند دي كاستيل ملك إسبانيا**.

ومن الأهمية بمكان أن نناقش الفضيلة الأخلاقية وهي التدين والنبالة وكيف ربطها بالنفاق أو التظاهر، لقد كان ماكيافيللي من ألد أعداء الكنيسة المسيحية ولكنه عداء سياسي وليس عداءً دينيًا، وذلك للدور السلبي الذي ساهمت فيه الكنائس للإبقاء على الولايات الإيطالية بكل تناقضاتها وأعراقها. وأن تركيزه على التظاهر بالتدين هو وسيلة لتحقيق غايات سياسية بحته، مع ملاحظة أن ماكيافيللي مع التدين الحقيقي لكن لا يتردد في الذهاب إلى نقيضه إذا فرضت الظروف ذلك لصالح الدولة. فيقول: " حيث يوجد دين يصبح من السهل تعليم الناس استخدام السلاح، أما حيث توحد الأسلحة، ولا يوجد ثمة وجود للدين يضحى من الصعب إدخاله ونشره".[47]

لقد تعامل ماكيافيللي مع الدين باعتبار أداة فعالة في إرساء فضائل سياسية كالشجاعة الحربية وهي فضيلة تمكن الناس من الدفاع عن أوطانهم. وللدين فضائل أخرى ذات أهمية بالغة في تأسيس أفضل التنظيمات التي أسست لعظمة روما وقوتها إذ: " كان الدين الذي أوجد " نوما " من الأسباب الأولية في إسعاد روما، فقد عني هذا الدين بإقامة عدد من التنظيمات الطيبة التي أدت بدورها إلى الكثير من حسن الطالع "[48].

أما على **المستوى الخارجي**، فإن النفاق يلعب دورًا أساسيًا في إقامة سياسة أمنية محصنة ولا يمكن، حسب ماكيافيللي – تصور كيان مستقل للدولة قابل للاستمرار ومحققا للأمن والحرية ما لم يقم على فضيلة النفاق أو التظاهر. وهنا نطرح التساؤل عن العلاقة التي تربط بين النفاق والتظاهر وبين نقض العقود والتنكر للعهود ؟ بمعنى هل يتعين على الحاكم أن يلتزم احترام العهود التي يبررها مع الحكام الآخرين أم أنه في حِلٍّ منها متى تعارضت مع مصالحه الوطنية ؟

يجيب ماكيافيللي بكل وضوح عن هذا التساؤل في الفصل الثامن عشر" الأمير" قائلا: "لا يخفى على أحد ما يلحق بالأمراء من الثناء إذا اشتهروا بحفظ العهود ولكن تجارب زماننا دلت على أن الأمراء الذين لم يراعوا العهود قاموا بأعمال كبيرة، وتمكنوا

من تحيي أوهام الناس بمكرهم، وتغلبوا في نهاية الأمر.. على الأمراء الذين اتخذوا الأمانة عادة والوفاء أساسًا لحياتهم "[49].

ويتناول ماكيافيللي النفاق السياسي وكأنه تولد من هيكل السياسة، ويربطه في مجال السياسة الخارجية بمسألتين أساسيتْن هما:

مسألة نقض المعاهدات ومسألة إدارة شؤون الحرب. وهما دعامتان لا تقوم العلاقات الخارجية بدونهما في نظر ماكيافيللي.

أما المسألة الأولى، فيرى ماكيافيللي قضية نقض العهود والمواثيق تتعدى العلاقة الشخصية للحاكم لتصبح علاقة حاكم عليه مسؤولية وطن ودولة وحاكم آخر له نفس المسؤولية. ويبدو موقف ماكيافيللي واضحا وصريحًا بهذا الخصوص مؤكدا على عدم وجدود ضرورة تلزم الحاكم بالوفاء بعهود قد قطعها على نفسه لحاكم آخر تحت ظروف معينة إذ كان مضطرًا لإلغائها مادام يعلم أنه يتعامل مع حكام هم بدورهم يفهمون السياسة على أنها دفاع عن المصالح العليا لدولهم وبالتالي فإن النكر للمواثيق والعهود لا يشكل عائقا على الإطلاق. " لأجل هذا لا ينبغي للأمير الحذر أن يحفظ العهود إذ كانت ضد مصلحته، ومادامت الأسباب التي دعت للوعد قد انقضى عهدها.. والناس أشرار لن يحفظوا لك عهدًا، فلست مضطرا لحفظ عهودهم " والسيد العاقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ على العهد إذا كان في وسع أعدائه أن يتخطوا محافظته هذه سلاحًا لإيذائه[50] وعلى الأمير الذي يرغب في التنكر لعهوده أن يجتهد في البحث عن الطرق الملتوية والتظاهر بوجود أسباب شرعية لذلك مستعينا بالحيلة لتحقيق هذه الغاية . ويوجد – حسب ماكيافيللي – : " عدد لا يحصى من الأمثلة العصرية على هذه الحقيقة، وأن يظهر، كم من المرات تنكر الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها "[51].

والمسألة الثانية هي ما تعلق بتسيير شؤون الحرب والتخطيط لها والإشراف عليها.

فالنفاق في ظروف الحرب أمر يستحق الثناء والتمجيد فمن السخافة أن لا يتصف القائد الحربي بغير فضيلة التظاهر والنفاق. ويوضح ماكيافيللي ذلك بقوله: " قد يكون

الخداع في أي عمل من الأعمال كريها ممقوتًا، إلاَّ أنه في إدارة الحروب وسيرها أمر جدير بالثناء التمجيد، والرجل الذي يقهر خصمه عن طريق الخداع، يستحق الثناء تماما كالمرء الذي يقهر خصمه عن طريق القوة[52]. والنفاق الذي يدعو ماكيافيللي إلى استخدامه على المستوى الداخلي مع رعيته وعلى المستوى الخارجي مع الحكام الآخرين في حال السلم والحرب إنما يفعل ذلك من أجل فضيلة سياسية متعلقة بأهداف سامية حتى وإن بدت من الناحية الأخلاقية رذيلة ممقوتة وتكمن قيمة فضيلة النفاق في قيمة فضيلة الحفاظ على الدولة في أوقات الضرورة الملحة.

ومن شأن هذه الفضيلة تضاف إليها الفضائل السياسية الأخرى المذكورة آنفا أن تضمن مصلحة الوطن في الحرية والمساواة. والمواطن الذي يرى في النهاية أن مدينته تنعم بهاتين الفضيلتين الخلقيتيْن لا تهمة الوسيلة المستخدمة في ذلك، بل يستثنى عليها ويمجدها. وارتباطا بما سبق، يمكن القول أن هذه الفضائل هي التي القوة والديناميكية السياسية والتي استقاها ماكيافيللي من واقع إيطاليا وتاريخ الحكومات والحضارة الرومانية.

ورأى أن غياب هذه الفضائل – بغض النظر عما يقال عنها بالمنظور الأخلاقي – تجعل الدول ضعيفة وممزقة. إنها — حسبُه– تخلق الصحة للدولة وتعطيها قوة القوانين وأن فقدانها يعني الكسل والضعف وتنمية طبائع حيوانية متوحشة. ولذلك فإن امتلاك الفضائل السياسية هم الجديرون بخلق الدول والقيام بأعمال عظيمة تغير مجرى التاريخ، وهي التي كانت سببا في انتصار روما في حروبهم المتعددة.

وقد قسم ماكيافيللي الأخلاق إلى أخلاق الأمير الحاكم وأخلاق الأمير الشخص. فمهمة الأول هي ممارسة السلطة بنجاح بهدف الحفاظ على سلطة الدولة وتقويتها، وحفظ الأمن والسلام والحرية والعدل والمساواة وتحقيق الرفاهية ومهمة الثاني هي إظهار أفضل الخصال كالنقاء والأمانة والصدق والولاء ويتصف بها على المستوى الشخصي لأنها تتعلق بالفضائل الأخلاقية.

غير أن مناقشة ماكيافيللي لم تتناول المسألة من الناحية الأخلاقية بل من المنظور السياسي وبالتالي فإن همه قد انصب على صفات الحاكم باعتباره رجل دولة.

ومن هنا لابد من الاعتراف بوجود فصل بين ما هو سياسي وما هو أخلاقي ولكن لابد أيضا من طرح السؤال التالي: هل ينبغي على الحاكم أن يقدم أخلاقه الاجتماعية الخاصة على الأخلاق السياسية أم عليه أن يفرض الأخلاق السياسية على الأخلاق الاجتماعية؟

إذا ما قدم الحاكم أخلاقه الاجتماعية باعتباره رئيسًا للدولة فإنه عندئذ فإنه لن يتقدم خطوة في سبيل تحقيق هدفه من ممارسته للسياسة. وإذا ما قدم الأخلاق السياسية على الأخلاق الاجتماعية فإنه سيخرب النظام الاجتماعي، وهذا يفرض علينا الاعتراف بوجود اختلاف بائن بين الأخلاق الاجتماعية والأخلاق السياسية مع الإشارة إلى أن المضمون الأخلاقي لا ينفك ينفصل عن السياسة ويتمثل في تحقيق أهداف نبيلة وعندئذ لا تهم الوسائل المفضية إلى تلك الغاية سواء كانت أخلاقية أو غير أخلاقية. وأما إذا ما قدم أخلاقه السياسية على أخلاقه الاجتماعية فسوف يؤدي ذلك إلى فقدان الثقة فيه من طرف المجتمع، وهنا تحدث القطيعة بين السلطة السياسية والمجتمع ومن ثم ستفقد السلطة شرعيتها[53].

وهذا يفرض على الحاكم أن يفصل بين أخلاقه الخاصة التي تفرض عليه التقيد بالفضائل الأخلاقية، وأخلاقه كممثل للدولة ورئيسًا لها، والتي تفرض عليه أن يتمتع بالفضائل السياسية. وعليه أن ينطلق من واقع العصر المعيش بكل تناقضاته وتعقيداته ليقوم بعد ذلك بما يجب أن يكون بنظرة واقعية قادرة بالفعل على تحقيق المصالح العليا للدولة والوطن. وهذا الهدف الأساسي لا يتحقق في نظر ماكيافيللي إلاَّ إذا اقتنع الحاكم بضرورة التمييز بين نوعين من الفضائل هما الفضائل السياسية والفضائل الأخلاقية ولا يمكن الربط بينهما لأنهما مختلفان في المبدأ والغايات، الأولى تركز على المصالح ولها وسائلها الخاصة بها من مناورات وحيل. والثانية تتقيد بالقيم في ذاتها والمؤدية إلى السعادة، وعليه فإنه: " من واجب الأمير أن يفرق بقوة وحزم بين المبادئ الأخلاقية ومطالب الحكم، أي بين ضميره والصالح العام، وأن يكون مستعدا لأن يعمل من أجدل الدولة، كما يسمى شرًّا في علاقة الأفراد بعضهم بعضًا[54]...و عليه في نفس الوقت أن يدرس فنون الدبلوماسية، لأنه لا يستطيع أن يحصل بالمكر والخداع في بعض الأحيان أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة.

ونصل في نهاية على المبحث إلى أن النظام الأخلاقي نظام شخصي له فضائله الخاصة بالشخص ذاته، ومن ثم لا يجب إقحامه في مجال السياسة التي لها فضائلها الخاصة التي ترتبط بظروف متميزة عن ظروف الأشخاص، وهي ظروف تفرض على الحكم ممارسة فضائل سياسية كالخداع والقوة، ونكث العهود، والتي لا يمكن وصفها بالرذائل لا تحققه من أهداف نبيلة للمجتمع والوطن. لكن، الواقعية التي ميَّزت الفكر الماكيافيللي، لا تملك مقومات الإستمرارية للدولة ومن ثمَّ تحقيق الاستقرار، لأن الحكم الذي يعتمد على القوة المفرطة وأساليب الخداع والكذب ونكث العهود. لا يمكن وصفه بالممارسة الرشيدة للحكم، لأن هذه الغاية الأخيرة يجب أن لا تفرق بين أخلاق الحاكم الذاتية وأخلاقه كرئيس للدولة ليعطي المثل الأعلى لرعيته، لأن الناس يتأثرون بالممارسات أكثر من الأقوال، فالرذائل الأخلاقية تبقى رذائل سياسية ولا يمكن تبريرها إلاَّ في الحالات الإستثنائية والتي لا تضر بالرعية وإنما لخدمتها.

الهوامش:

1–جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ص697-680.

2–إبراهيم شلبي، **علم السياسة**، دراسة في قواعد الأصولية، الدار الجامعية، بيروت: 1985، ص ص 14-18.

3–جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ص 680.

4–ابن منظور، **لسان العرب**، دار المعارف، القاهرة: 1970، ص 219.

5–إبراهيم شلبي، **علم السياسة**، ص ص 29-31.

6–الماوردي، **نصيحة الملوك**، ص 198.

7–المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

8–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تر: محمد لطفي جمعة، مؤسسة النوري، دمشق: ط2، 1990، ص183.

9–ول ديورانت، **قصة الحضارة**، تر: محمد بدران، اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، الجزء 4، المجلد5، ص44.

10–حمد طه بدوي، **النظرية السياسية**، المكتب المصري الحديث، الإسكندرية: 1986،ص 133.

11–هارولد لاسكي، **آراء في السياسة**، تر: السيد فرج، الدار القومية للطباعة، القاهرة: 1964 ،ص8.

12–بطرس غالي ومحمود خيري عيسى، **المدخل إلى علم السياسة**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: 1972، ص9.

13–نعيم عطية، **في النظرية العامة للحريات**، الدر القومية للطباعة والنشر، القاهرة: 1965، ص ص 48-50.

14–هشام الإقداحي ، **تاريخ الفكر السياسي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية: 2010، ص183.

15–جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ج2، دار الكتاب اللُّبناني، بيروت: 1979، ص 202-203.

16–J.Lock, **Humanunderstanding**, London: 1690, vol, II, s8.

17–إسماعيل علي سعد، **نظرية القوة في علم الاجتماع السياسي**، دار المعرفة الجامعية، ص 98-100.

18–المرجع نفسه، ص 101.

19–المرجع نفسه، ص 101-102.

20–جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، ص 202.

21–إسماعيل علي سعد، **نظرية القوة في علم الاجتماع السياسي**، ص 104-105.

22–وهنا يلتقي ماكيافيللي مع السفسطائية القديمة، ومذهب المنفعة الحديث مع الإنجليز. ويمكن العودة إلى مذهب المنفعة اليوناني مع أرِستيب وأبيقور.

23–ماكيافيللي، **الأمير**، تعريب: خيري حماد، منشورات، دار الآفاق الجديدة، بيروت: ط 22، 1999، ص 147-148.

24–أفلاطون، **الجمهورية**، تعليق: حنا خباز، دار القلم، بيروت، ط 5، 1985، ص: 125.

25–**تراث الإنسانية**، ج 4، ص: 349.

26–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، تعريب: خيري حماد، وتعقيب، فاروق سعد، ص: 137.

27–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ص ص: 138-139.

28–المصدر نفسه، ص: 139.

29–المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

30–المصدر نفسه، ص ص: 140-141.

31–محمدمحمد علي ومحمد علي عبد المعطي، **السياسة بين النظرية والتطبيق**، دار النهضة العربية، بيروت، 1985.

32– نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تعليق: محمد لطفي جمعة، مؤسسة النوري، ط 2، دمشق، 1990، ص 137.

33–المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

34–م. ن، ص: 138.

35–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ص ص: 143-144.

36–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، ترجمة: محمد لطفي جمعة،ص ص:138-139.

37–المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

38–المصدر نفسه، ص ص: 139-140.

39–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، تعريب: خيري حماد، تعقيب، فاروق سعد، ص: 111.

40–نيكولا ماكيافيللي، **مطارحات ماكيافيللي**، تعريب: خيري حماد، ص: 59.

41–نيكولا ماكيافيللي، **مطارحات ماكيافيللي**، ص: 374.

42–نيكولا ماكيافيللي،**الأمير**، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ص: 98.

43–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، محمد لطفي جمعة، ص: 140.

44–المصدر نفسه، ص: 133.

45–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ص: 150.

46–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تعقيب: محمد لطفي جمعة، ص: 143-144.

47–نيكولا ماكيافيللي، **مطارحات ماكيافيللي**، ص: 262.

48–المصدر نفسه، ص: 263.

49–نيكولا ماكيافيللي،**الأمير**، تعقيب : محمد لطفي جمعة، ص: 141.

50–ول ديورانت، **قصة الحضارة**، تر: محمد بدران، ج 4، المجلد 5، ص:67.

51–نيكولا ماكيافيللي، **الأمير**، تراث الفكر السياسي قبل الأمير وبعده، ص ص: 148-149.

52–المصدر نفسه، ص: 150.

53–عماد شعيبي، **السياسة وفن الحكم**، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط 1، 1991، ص 50-51.

54–ول ديورانت، **قضية الحضارة**، ترجمة: محمد بدران، ج 4، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1976، ص: 67.